الحرب الروسية على الإسلام والمسلمين

محمد يوسف عدس

الحرب الروسية في سوريا هي حرب على الإسلام ، وهذه الحرب قديمة قدم نشأة الدولة الروسية نفسها ؛ فقد وُلدت روسيا على أنقاض إمبراطورية إسلامية حكمت روسيا قرنين من الزمان -خلال العصورالوسطي- ولكنها لم تعامل الروس بمثل هذه الوحشية التي تقوم بها روسيا -حاليًا- ضد المسلمين غير المسلحين في سوريا . وحصار حلب وهدم بيوتها على رؤوس النساء والأطفال وتشريد سكانها - أكبر دليل على ذلك .. ولن أتحدث الآن عن الحرب الشيشانية التي عاصرتُها ، وكتبت مئات الصفحات عن مأساتها . ولكنى أريد أن أعيد إلى الأذهان بعض حقائق أخرى على جانب كبير من الأهمية ، لا يمكن تجاوزها لأنها تكشف لنا عن الجذورالتاريخية المتأصلة للعداء بين روسيا والمسلمين.

من هذه الحقائق أن روسيا ظلت زمنًا طويلا تحت الحكم الإسلامي لملوك من القبيلة الذهبية التي ترجع إلى أصول تترية مسلمة .. وكان التتار قبل ذلك بقرون قد اعتنقوا الإسلام ، وأنشأوا إمبراطورية مسلمة في منطقة آسيا الوسطى والقوقاز وأوربا الشرقية. وكلنا يعرف أن المغول والتتار[فرع منهم] غزوا العالم الإسلامي من قبل ودمروا مدنه فى آسيا الوسطى والعراق والشام ، ولكن يشاء الله أن يعتنقوا الإسلام ، وكانت هذه أول مرة في تاريخ البشرية يعتنق فيها الغزاة المنتصرون دين المنهزم المقهور .. كما يشاء الله أن يأتي من أصلابهم أبناء متحمسون للإسلام ، وللحضارة الإسلامية ، وقد استطاعو أن ينشروا   لواء الإسلام من الصين إلى روسيا وبولاندا .. ولا تزال جمهورية تترستان [في روسيا] شاهدًا على هذا التوسع الإمبراطوري المهول للمسلمين ..

ولكن تشاء الحكمة الإلهية ألا يبقى القوي قويًا إلى الأبد ولا الضعيف ضعيفًا إلى الأبد ، فقد شهدنا أنه في الوقت الذى بدأت فيه إمبراطورية التتار المسلمة تتحلل وتتفكك نتيجة للخلافات والانقسامات بين حُكَّامها [من أبناء القبيلة الذهبية] ، كانت دولة روسية تتشكل في رحم الأيام وتنمو.. وحدث أول صدام بين الدولة الروسية الوليدة وبين المسلمين في المناطق الأوروبية التى تقع اليوم ضمن الاتحاد الروسي ؛ وأعنى بها حوض نهر الفولجا الأوسط ..

فقد استطاعت روسيا بقيادة ملكها المسمى "إيفان الرهيب" أن تستولي في هذه المرحلة المبكرة على قازان سنة ١٥٥٢م وعلى إستراخان سنة ١٥٥٦م. وكانت منطقتين أسلاميتين تقعان في قارة أوروبا.. خضعتا للمسلمين طوال قرنين من الزمن فيما بين القرن الثالث عشر والخامس عشرالميلاديين..

هذه حقيقة تاريخية يصح أن نعيها جيدًا: أن الروس كانوا ضمن الشعوب الأوروبية التي خضعت للسيطرة الإسلامية لمدة قرنين وكانت عاصمتهم موسكو ضمن هذه السيطرة.

والعجيب في الأمر أن الروس كانوا في ذلك الزمن يكِنُّونَ للمسلمين مزيجاً من الاحترام الشديد ويشعرون إزاءهم – في نفس الوقت – بعقدة النقص ؛ نظراً لتفوقهم الحضاري والعسكري .. وهذا بالمناسبة كلام ليس استنتاجا من عندى ولكنى أنقله حرفيًّا عن مؤرخين سوفييت.. وانظر في هذا صفحة رقم ١٦ من كتاب " المسلمون المنسيون في الإتحاد السوفيتيّ " تأليف "ألكسندر بنييجسن" و"شانتا لوميرييه كيلكجاي" و ترجمة عبد القادر ضللى . بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٩٨٩ .

لم تكن للدولة الروسية، سواء في عهد ملكها إيفان الرهيب أو في عهد ملوك "آلْ رومانوف "الأوائل سياسة قومية واضحة ، ونادرا ما كانت تهتم بتنظيم علاقاتها مع الشعوب المغلوبة .. وإنما كانت تمارس الغزو والقهر والإدماج .. ومن ثم عومل المسلمون في قازان وإستراخان كرعايا من الدرجة الثانية لا حقوق لهم ..

ولم يكن جزاء الذين يتصدون للسلطة الروسية بالمقاومة إلا التصفية الجسدية .. وقد عامل الروس الدين الإسلامي معاملة مهينة وسلطوا عليه جبروتهم في المدن حيث هدموا جميع المساجد ونفوا المشايخ وأصبح الإسلام محاصرًا في القرى بين الفلاحين ..

فُرض على مسلمي المدن أن يختاروا بين إعتناق المسيحية أو القتل .. وقد حققت هذه السياسة بعض النجاح الظاهري في أول الأمر ؛ حيث قبلت قلّة من العائلات التترية الثريّة سياسة الاندماج الروسية .. ولكن غالبية النبلاء التتار رفضوا الترويس و رفضوا إعتناق المسيحية فدُمرت ممتلكاتهم وصودرت أراضيهم .. أما الذين أُكرهوا على اعتناق المسيحية فقد كانوا يضمرون الحقد على الروس، بينما ذهب رجال الدين المطرودون إلى القرى ليذوبوا في أوساط الفلاحين .

هدأت موجة التوسع الإمبريالي لروسيا خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر طوال حكم بطرس الأكبر وكاترين الثانية ، حتى جاء القيصر ألكسندر الثاني ، حيث واجه المسلمون التتار في القرم أكبر كارثة دمرت مجتمعاتهم .. فقد سطا القيصر على أموالهم وأراضيهم ومنحها لأمراء الأسرة الحاكمة، وراح يجلب إلى القرم مستوطنين من شتى بلاد أوروبا كان من بينهم اليونانيون والألمان والروس والأوكرانيون .. وظل هؤلاء المستوطنون يدفعون المسلمين إلى الأراضي القاحلة الجرداء داخل شبه جزيرة القرم ، ويحاصرونهم حتى لم يعد أمامهم سوى الهجرة إلى الدولة العثمانية .. وقد خرج منهم مليونان بين عام ١٨٧٣ و ١٨٩٣م ؛ استقروا في تركيا والأقاليم العثمانية الأخرى مثل رومانيا وبلغاريا .. ولم يبق في القرم عشية انطلاق الثورة البشلفية في أكتوبر ١٩١٧م سوى جالية صغيرة فقيرة تحاصرها كتل سكانية من المستوطنين الروس والأوروبيين .. إلى أن دمّرها السّفاح ستالين تدميرًا كاملا .

ربما يكون القوقاز الشمالي هو المنطقة الإسلامية التي واجه فيها الاستعمار الروسي أعتى مقاومة على مدى القرون .. بلغت ذروتها سنة ١٧٧٣ بالجهاد الذي أعلنه الإمام :

"منصور أوشورما" .. ثم تواصلت المقاومة الضارية عبْر ٣٥ عامًا بقيادة الإمام شامل (من ١٨٢٤ حتى عام ١٨٥٩) ، ثم استؤنفت بعد ذلك بثورة داغستان في عامي ١٨٧٧ و ١٨٧٨م .. ثم تواصلت ثورات القوقاز الشمالي .. وليس المشهد الذي عاصرناه في الشيشان إلا حلقة في سلسلة طويلة من المقاومة الضارية .. والمواجهات البربرية التي تشنها القوات الروسية ضد هذه المقاومة .. وقد سجّلتُ تفاصيل هذه الحرب في كتاب كامل سنة ٢٠٠٠م.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن روسيا قد برزت في أواخر القرن الثامن عشر واحدة من أكبر الإمبراطوريات في العالم ، فقد امتدت سيطرتها على عددٍ كبيرٍ من الشعوب والقوميات والأديان المختلفة ؛ ففي الغرب مسيحيون أرثوذكس مع أقلياتٍ من الكاثوليك، واليهود، وفي الجنوب والشرق مسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة من السكان إلى جانب البوذيين والوثنيين.

كل هؤلاء الرعايا من غير الأرثوذكس كان يطلق عليهم اسم جامع هو "إنورْدِسْتى" وهذا المصطلح يعنى في آن واحد [غير المسيحي وغير الروسي] ، وهم أقوام يختلفون اختلافا كاملا عن الروس: لا يشتركون معهم في أصول عرقية أو دينية أو لغوية ، فالروس المستعمرون ينحدرون من سلالات سلافية أوروبية بيضاء ويدينون بالأرثوذكسية ولهم لغتهم وأبجديتهم الخاصة.

وكانت روسيا تنظر إلى هؤلاء الأغيار من أبناء آسيا والقوقاز على أنهم حيوانات برية وقبائل بدائية همجية لا عهد لها ولا أمان معها ، وهذه نظرة عنصرية حادة لعالم منقسم ينفرد فيه غير المسيحي بكل خصائص الانحطاط ، بينما يمثل الروس الأرثوذكس قيم الحضارة والأخلاق والنظام والدين الوحيد الصحيح.

هكذا تحددت عند الروس صورة الذات وصورة الآخر، وتحددت بالتبعية رسالة روسيا تجاه الأغيار، فلكي يصبح هؤلاء رعايا صالحين لابد من "ترويسهم" أي جعلهم روسيين، ولا يتم ذلك إلا بحملهم على اعتناق الأرثوذكسية واستئصال لغتهم وثقافاتهم الخاصة ، وإجبارهم على التعامل باللغة الروسة ، بذلك فقط يتأهل الأغيار للاندماج في النظام القانوني والاقتصادي للدولة الروسية.

وظنت السلطان القيصرية بأنها -بذلك القمع- قد ضمنت تنصير المسلمين وتخلّيهم عن لغتهم ، ولكن بعد سنوات طويلة أرسل القسس الأرثوذكس إلى القيصر يشكون إهمال السلطات الروسية المحلية الذى -أدّى في اعتقادهم- إلى أن المسلمين الذين تظاهروا باعتناق المسيحية لا يحضرون الصلاة في الكنيسة ولا يراعون القوانين المسيحية.. وظلوا يعيشون في كنف أقاربهم المسلمين .. بل إنهم بدأوا يبنون مساجد جديدة مخالفين بذلك قوانين الحكومة.

استجابة لهذه الشكاوي أصدر القيصر فرمانا عام ١٥٩٣م يقضى بضرورة تدبير مساكن للمتنصرين خارج مدينة قازان ليعيشوا بين الروس المسيحيين، وأن يراقب الحكام

المحلّيون حسن مراعاة هؤلاء المتنصرين للقوانين المسيحية ، وأن يمنعوا الزواج بينهم وبين المسـلمين.. وعلى القسـاوسـة أن يقوموا بتعميد الأطفال الذين ولدوا من الزيجات المختلطة ، وجميع العبيد الذين هم في حوزة المسـلمين، أما أولئك الذين لا يخضـعون لأسلوب الحياة المسيحية فيقيدون بالسلاسل ويقذف بهم في السجون حتى ينسوا دين التتار [يقصد الإسلام]، ولا يُفرج عنهم حتى يثبتوا إيمانهم القوى بالمسيح .. وينتهي الفرمان القيصري بالأمر: أن يقوم حكام المنطقة بهدم المساجد على الفور.

[من أرشيف الوثائق الروسية في بطرسبورج، المجلد الأول: صفحات٤٣٦ ـ ٤٣٩]

كان الروس يطلقون على فئة المسلمين المتنصرين إسم "كرياشين" وظلوا يحملون هذا الاسم جيلا بعد جيل تمييزا لهم عن الروس الأوربيين البيض الذين يشار إليهم باسم "الأرثوذكس". هؤلاء "الكرياشين" كانوا في الواقع يشكلون مجتمعا منبوذا مقطوع الصلة بجذوره الحقيقية . ولكن يبدو أن التنصير بين المسلمين لم ينجح ، رغم مرور مائتي عام على وجودهم تحت حكم الإمبراطورية الروسية .. ورغم الاضطهاد المتواصل ضدهم.

وقد بلغ الأمر أن أحد القياصرة واسمه "فيودور" أصدر فرمانًا بسجن المرتدّين عن المسيحية وضربهم وربطهم بسلاسل حديدية ، كما اتخذ إجراءات لعزل الكرياشين بعيدًا عن المجتمعات المسلمة ، والتفريق بين الكرياشينيّ وزوجته غير المسيحية. وصدر قانون سنة ١٦٤٩م كان يحكم على أي مسلم تثبت عليه تهمة تحويل أي روسي عن الأرثوذكسية إلى الإسلام بالإعدام حرقا أو شدًّا على الخازوق .. وفي القرن الثامن عشر [تحديدًا سنة ١٧٤٠م] أنشأت روسيا إدارة خاصة بالكرياشين ، كانت تعاقب المرتدين إلى الإسلام بالغرامات والضرب ، والفصل بين الأزواج في الزواج المختلط ، والحبس فى الأديرة ، والذين يبدون مقاومة أكثر كانوا يُنفون إلى سيبيريا.

هذا الإرهاب لم يزد الكرياشين إلا إصرارًا على العودة إلى الإسلام ، فقد ثبت في يقين المضطهدين والمنفيين أنهم مجاهدون في سبيل الله وأن من يُقتل منهم فإنه يموت شهيدا.

وهكذا رغم أن القوانين الروسية تحرِّم على الكرياشين وعلى ذريتهم من بعدهم العودة إلى الإسلام ، إلا أن كراهية المسلمين لهذا التنصير الإجباري ، انتقلت ميراثًا ثابتًا من الأجداد إلى الأحفاد جيلًا بعد جيل ، حتى جاءت الصحوة الكبرى في أوائل القرن التاسع عشر حيث تعاظمت حركة العودة إلى الإسلام ، وأصبحت ظاهرة متفجّرة ؛ فقد بدأ هؤلاء الأحفاد يرجعون أفواجا من الأرثوذكسية إلى الإسلام ، وقد حدثت هذه العودة الجماعية على هيئة موجات متعاقبة بأعداد كبيرة تشمل كل موجة أبناء قرية بأكملها ، خلال سنوات: ١٨٠٣، ومن ١٨٢٧ إلى ١٨٣٠ و من ١٨٦٥ إلى ١٨٧٠، وفي سنة ١٩٠٥م.

وقد أثارت هذه الظاهرة دهشة وتساؤلات لدى الباحثين: لِـمَ يتخلّى المتنصرون من ذوى الأصول المسلمة عن المسيحية وهي دين القوىّ الغالب، ويعودون إلى الإسلام وهو دين

المقهورين والمستضعفين..؟! .. فِيمَ هذا الإصرار على العقيدة الإسلامية والرغبة العارمة في العودة إلى الإسلام..؟ وما هي تلك الآليات التي كانت تعمل في هذا المجال؟.

ومما زاد في دهشـــة الباحثين أن تحدث ظاهرة العودة رغم كل القوانين والاحتياطات وإجراءات القمع والاضــطهاد التي اتخذتها الســلطات الروســية على مر العصــور لمنع الكرياشين من العودة إلى الإسلام..

لقد جذبت هذه الظاهرة الفريدة باحثة أمريكية هي "أجنيس كيفلي": خبيرة في الدراســات التتارية وتقوم بالتدريس في جامعة أريزونا، ومتخرجة من جامعة الســـربون ومن معهد اللغات والحضـارات الشرقية في باريس .. أثارتها ظاهرة العودة المكثفة للتتار الكرياشين إلى الإســلام وأرادت أن تكشــف عن العوامل الاجتماعية والاقتصــادية والثقافية وراء هذه الظاهرة المذهلة .. فكانت دراسـة بالغة الأهمية مثيرة للدهشـة لما تناولته وما كشفت عنه من حقائق مفصـــلة لوقائع هذه العودة الجماعية إلى الإســـلام وما صـــحبها من تحديات وصـراعات بين السـلطة الروسـية والمسـلمين العائدين..! ونواصـل هذه الرحلة في حلقة قادمة بإذن الله.

myades34@gmail

(نشر المقال بجريدة الشعب في ١٨يناير ٢٠١٧م)